# آدم

**بقلم....أماني محمد القرني / السعودية**

التهمتُ أُقمة المُثلّجات السّائغة واللذيذة تلك بِمنتهى الاستمتاع، بينما هي لَم تَكُن كذلك، لَم تَكن مُرتاحةً أبدًا لتلك النّظرات التي أَخَذت تلتهمنا من كل ناحيةٍ وهي تقوم بإطعامي لأصناف الحلوى..

وبالرُّغم من مقدرتي التّامة على تناوله بطريقتي الخاصّة، غيْر أنّ الآنسة إيڤا لديها قوانينها الخاصّة التي تُحرّم عليَّ ذلك أمام أنظار الناس..

تأوّهت بخيبةٍ مُزيّفة بداخلي وأنا أردف بيني وبين نفسي..

"أُمّي..!

بحقّ الله..!

أَلَن تعتادي على هذا الأمر؟!..إلى متى؟"..!

استفقت من نقاشي الهامس والقصير ذاك وأنا أقوم بالتهام اللّقمة الأخرى بغاية اللّذة والتمعّن في طعمها السُكّري والبارد، ونكهة الأناناس قد بَدت جليّةً في مَذاقها..

"آه كم أحب الأناناس"..!

في الحقيقة أنا أُحب كل شيءٍ في هذه الحياة، كل شيء..!

ما عدا هذه الملامح التي تصنعها والدتي كُلّما خَرجنا سويًّا إلى أي مكان، وعندما يبدأ الناس بالنّظر إلينا بتلك النّظرات الغريبة والطريفة عندما تقوم هي بإطعامي رغمًا عني، فضلًا عن تركي لأفعل ذلك بنفسي وبطريقتي المُضحكة والغريبة تلك..

ألَم يحِن الأوان لِتترك والدتي كل هذا الامتعاض والحَرج من نَظَراتهم؟..

إنّها تعيش بدَلًا عنّي، بِحق!، هي من تشعر بالحرج بدلًا عنّي، هي من تتألّم بَدلًا عنّي، هي من تُحارب هذه الحقيقة بدلًا عنّي، هي المُعاقة ولست أنا..

تعيش حياتها وحياتي مَعًا..

ولكن لا بأس، هذه والدتي، جميع توسّلاتي إليها بأن تكفّ عن تعذيب وإنهاك نفسها منذ سنواتٍ طويلة قد ذهبت سُدىً، وستذهب سُدىً إلى نهاية هذه الحياة..

فهي لا تَرى بأنّي ابنها، صاحب الجسد والرّوح المُنفصلين عنها، بل هي شخصٌ مُستبد ومُتملّك! هي تراني جَسدها وروحها الآخرَيْن..

"ما كُلُّ هذا النقاش الدرامي المُفاجئ يا أنا؟"...

عُدت لأستمتع بتلك المُثلّجات مُجددًّا برفقتها وأنا أُراقب الألعاب النّارية المُذهلة التي انطلقت في سَماء موسكو مُنبّئةً بحلول العام الجديد..

قُشعريرةٌ من الفَرح سَرت في جَسَدي لتنطلق جرّاءها صرخةٌ قصيرة وشغوفة من صدري وأنا أرى ليل سَماء موسكو قد تبدّل في لَحظاتٍ قصيرةٍ إلى نهار..

اِلتفتت هي مع تلك الابتسامة اللّطيفة الممزوجة بضحكةٍ صامتة وهي تتأمّل تفاعلي الطّفولي مع هذه الأضواء.

"ما الأمر أُمّي؟..

ما معنى هذه النّظرات؟"..

هتفت بذلك في حَرجٍ مصطنع وأنا أرمقها بنظرةٍ ناقدةٍ مُزيّفة..

"أوه آدم بحقّ الله!.. أنت في السابعة والعشرين"..!

هتفت بذلك دون أن تنظر إليَّ مُحاولةً استفزازي..

لَم أستطع الرّد عليها فقد انطلقت مجموعةٌ أخرى من الألعاب النّارية لتنفجر بألوان العلم الرّوسي، فلَم أشعر بنفسي وأنا أشهق مُجددًّا في غاية الانذهال والسّرور..

أمّا هي فقد راحت تُشغل نفسها بِتناول المُثلّجات مُحاولةً كتم ضحكتها المنحرجة من تصرّفاتي..

•••

بالكاد انتهت الاحتفالات في وقتٍ مُتأخّرٍ من الليل، وقد غادر كثيرٌ من الناس سَاحة قصر الكرِملين..

فَنهَضت من مكاني برفقة والدتي وأخذت أُساعدها في حمل أواني أطعمتنا التي جَلبناها سويًّا للاحتفال..

وقد قررّنا في هذه الليلة أن نعود للمنزل مشيًا على الأقدام بدلًا من استخدام الحافلة..

وبالرّغم من قلق والدتي من أن تتأذّى قَدماي من المشي، غيْر أنني أقمت معها معركةً قصيرةً للسّماح لي بالمشي كل هذه المَسافة كما هي العادة كل عام..

كان الأوّل من شهر يناير..

ولِحسن الحظ، فإن القَمر كان مُقمرًا ومكتملًا في تلك اللّيلة..

وكان وميض نوره الخافت والنّاعم ينعكس بِشكلٍ فاتنٍ على أكوام الثّلج البيضاء التي غطّت الشوارع والأرصفة..

خَطرت ببالي فكرةٌ ممتعة بعض الشيء، وجنونيّة بالنّسبة لوالدتي..

غير أنني أعشق مُعاندتها واستفزازها دائمًا..

أسرعت لوضع سلّة الأواني جانبًا لأجلس بوسط الرصيف وأنا أهرع لخلع حذائي وسط تعجّب وذهول والدتي ممّا أفعله..

"آدم؟!!...توقّف عن ذلك بحق الله!!..ستتأذّى قَدماك"!

لَم أُبالِ بِزجرها لـي واستمرّيت بِخلـع الأصـابع الاصـطناعية من مُقدّمـة رجلاي، ثم بعد ذلك نَهضت لأركض بصعوبةٍ قليلة على أكوام الثّلج وأتحسسّ برودته على باطن قدماي بغاية الاستمتاع والنّشوة والقشعريرة اللذيذة..

"أوه يا إلهي!!..متى سوف يَكبُر هذا الفتى؟"..!

هَتفت هي بذلك وهي تجلس مُستسلمةً على أحد المَقاعد جانبًا منتظرةً بأن أنتهي من فِقرتي الطفوليّة والتهريجيّة تلك..

أَعلم أنَّ هذا مُحرج، بالنّسبة لِشابٍ يعمل كَمُعلّمٍ للرّياضيات! ولـه العديد من الطّلبة والطالبات..!

سَقطتُ بشكلٍ درامـي ومُصطنع على كومـة ثلجٍ قريبـةٍ مـن والـدتي، وأخذت أحرّك يداي ورجلاي بهستيريّةٍ عليها غيْر مُبالٍ بنظرات المارّة لي، وكذلك نَظَراتُ والدتي التي تحوي الكثير من الوعيد لي..

فجـأةً، أخـذت أرفـع صـوتي بكلِّ نَذالـةٍ وأنـا أوجّـه حـديثي للمـارّة علـى الرّصيف لكي أزيد من استفزاز والدتي..

"مرحبًا..!!

أُدعى آدم بيلينسكي..!!

وهذه والدتي..!!

تُدعى إيڤا بيلينسكي..!!

وأنا أعمل مُعلّمًا في مدرسة أنجليوف الخاصّة"..!!

في هذه اللّحظة، لَمحت والدتي وهي تنهض من جلوسها وتهرع لتلتقط كومةً من الثّلج لترمي بها على وجهي لكي أخرس..

فلَم يكن منّي سوى أن أنفجر ضاحكًا بشكلٍ عنيف، فقد نِلت مُرادي..!

كَم أُحبّها عندما تكون غاضبةً وقاسية، وكم أمقتُ عندما تُعاملني كطفلها الصغير والعاجز..

"آدم!! انهض وارتدِ أصابعك الصّناعية بسرعةٍ قبل أن تتأذّى قَدماك"..!!

هتفت بذلك بانفعالٍ وامتعاض وهي تجذبني بصعوبةٍ من على الثّلج..

"أنا لَم أقترض مبلغًا من المصرف لتتعامل مع هذه الأطراف الباهضة الثّمن بهذا الإهمال آدم"..!!

نهَضت بإحباطٍ من على الثّلج، لَم أكُن مُحبطًا بسبب غضّبها وزجرها لي، بل كنت مُحبطًا لأنني لم أكُن أملك أصابعًا في يداي لكي أجذبها لتقع على الثّلج وتُشاركني مُتعة التقلّب عليه..

•••

عُدنا إلى المنزل وقد كانت هي مُتعبةً للغاية بعد أن كررّتُ تقلّبي على الثّلج لأربع مرّاتٍ على طول طريق عودتنا للمنزل..

ذهبَت هي للنّوم أمّا أنا فبقيت مستيقظًا على الشُّرفة، أتأمّل المباني وأنا أفكّر بِسَرحانٍ بشأن العملية التي سوف تُجرى ليداي الأسبوع المُقبل في مستشفى يواكيموف، والتي انتظرناها أنا ووالدتي منذ ما يقارب الأحد عشر عامًا..

كانت الرّياح باردةً كالصّقيع في الخارج غيْر أنّني لم ألحظ ذلك ولم أهتم..

بقيت فقط أُفكّر بتلك الفكرة الُمرعبة التي دائمًا ما تتكرّر في بالي وخَلَدي..

لَو أنّ والدتي قررّت التخلّي عنّي لِذلك الملجأ قبل سبعةٍ وعشرين عامًا عندما اكتشفت بشأن تشوّهي الخلقي، وبشأن أنّني لا أملك أصابعًا في كِلا يديَّ وقدميّ..

ماذا لو عِشتُ حياتي بدونها..؟

سَرت قُشعريرةٌ من القَرف بداخل صدري لِهذا التّساؤل المُثير للاشمئزاز والخوف معًا..

لَم أكُن محظوظًا أبدًا لأن أكون مُطّلعًا على هذا السّر القبيح، غيْر أن جدّي الحبيب كان ثرثارًا بشكلٍ سخيف..

تنهّدت بعمقٍ وكأنّني أحاول أن أنثر تلك المشاعر السلبيّة من على كاهلي..

وأثناء انغماسي في بحر سَرَحاني هذا، شعرت بطيف شخصٍ ما يقف خلفي..

تنهّدت بأسىً لألتفت وأنا أهتف بخيبة..

"أُمّاه..!

ما الخطبُ الآن؟..!

لِمَ لَم تنامي؟"..

لَم تُجبني بل تقدّمت بِخُطواتٍ بطيئة لتجلس بهدوءٍ بجانبي وهي تلفُّ معطفها الصّوفي حول جَسدها..

"لا أستطيع النّوم..

فَموعد عمليّتك يشغل بالي كثيرًا آدم"..

أَلَم أخبركم!، يا إلهي إنّها تعيش بَدلًا عنّي..

اقتربتُ منها لاحتضنها بيَداي العاريتين من الأصابع وأضع رأسي على كَتفها وأنا أنفث الهواء من صدري..

"أُمّي..

توقّفي عن كل هذا أرجوك...

لا أريد جَسَدًا كاملًا..

أريدك أنتِ فقط

فأنا كاملٌ بك ومعك أنتِ أُمّاه"..

شَعرت بجسدها يهتزُّ بِخفّةٍ ليهتز رأسي مُتجاوبًا معه جرّاء ضحكتها الصّامتة تلك.. لَم تُعلّق على جُملتي تلك، بل اكتفت بإمساك يدي وتقبيلها بشفتيها الدّافئتين..

أغمضتُ عينياي بِعُمقٍ لأستمتع برائحة عطر الياسمين الذي تضعه على معطفها..

تلك اللّحظة هي كُلُّ ما أريده، هي جُلُّ ما أطلبه، هي نعيمي وفردوسي الأبدي.. كُنت مستندًا على الجسد الذي خُلِقت منه، ومنه أعيش، ومن خلالِه أتنفّس وأحيا..

معها، أنا طفلٌ إلى الأبد.. معها، أنا كاملٌ وسليم.. وبدونها، أنا ناقصٌ وسقيم..